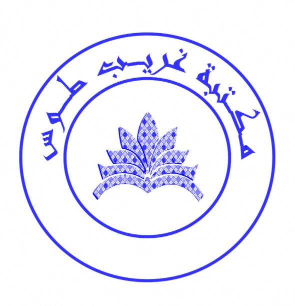
عالم المرأة ٣



المرأة

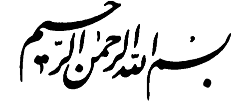
بين الواقع التاريخي و الدور المغيّب

مؤسسة البلاغ



المـرأة

بين الواقع التاريخي والدور المغيب



﴿إِنَّ ٱلْمُسلمينَ وٱلمُسلماتِ وٱلمُؤمنينَ وٱلمُؤمناتُ وٱلقانتينَ وٱلقانتاتِ وٱلصّادقينَ وٱلصّادقاتِ وٱلصّابرينَ وٱلصّابراتِ وٱلخاشعينَ وٱلخاشعاتِ وٱلمتصدّقينَ وٱلمتصدّقاتِ وٱلصّائمينَ وٱلصّائماتِ وٱلحافظينِ فُروجَهُم وٱلحافظاتِ وٱلذّاكرينَ ٱللهَ كَثِيراً وٱلذّاكراتِ أعَدَّ ٱللهُ لَهُم مَغْفِرةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾. (الأحزاب / ٣٥)



المرأة بين الواقع التاريخي والدور المغيّب.
تأليف ونشر: مؤسّسة البلاغ.
طُبع من هذا الكتاب ٠٠٠ر١٠ نسخة في مطبعة الصّدر.
الطبعة الأُولىٰ: ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

ISBN 964-402-109-6

E - Mail: books @balagh.com

Fax: 0098-21-2575778

الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران ـ طهران ص. ب ١٩٧٧ / ١٩٣٩٥

P. O. Box: 1977/19395 ISLAMIC REPUBLIC OF IRAN

موقع البلاغ على الانترنيت : www.balagh.com

كلمة المؤسّسة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيّدنا محمّد وعلى أهل بيته الطيّبين الطاهرين، وبعد..

فشعوراً منّا بالحاجة إلى دراسة موضوعية تقدِّمها «مؤسسة البلاغ» إلى المسلمين في العالم حول مكانة المرأة في التنمية، وبناء الحضارة الانسانية في ضوء القيم الاسلامية، فسيجد القارئ الكريم في هذه الدراسة الموثّقة حقائق وأرقاماً حول حقيقة موقع المرأة في الكيان الانساني من خلال أوثق النصوص الاسلامية المقدّسة الواردة في كتاب الله العزيز والسنة الشريفة، مع عرض للعوامل التي شوّهت دور المرأة في البناء الحضاري الانساني، وانتقصت من مكانتها، ومهمّتها في الحياة، سواء أكانت عوامل اجتماعية، أو ثقافية..

كما سيجد القارئ العزيز استعراضاً مفيداً عن مكانة المرأة في التاريخ، وما عانتهُ في ظلال التجارب الاجتماعية المختلفة، ودور الاسلام المميّز في تحريرها، والدفاع عن حقوقها، ومكانتها الاجتماعية، واعتبار ما وقع عليها من آلام، ومتاعب «مظلومية» تاريخية يجب أن ترفعها الأمم من خلال المشروع الربّاني لخلاص الانسان.. مع استعراض

لعوامل غياب وعي المسلمين عن دور المرأة في العهود التي تلت ظهور الاسلام الحنيف، وتجربة النبوّة الرائدة على وجه الأرض..

وبعد هذا الاستعراض المفيد، ذكّرت هذه الدراسة بطريقة علمية موثّقة بدور الاسلام في تحرير المرأة، ودورها الحقيقي في الحياة الانسانية، كما أرادها الله عزّ وجلّ..

كما قامت هذه الدراسة التي بين يدي القارئ الكريم بإعطاء صورة واضحة عن العلاقات بين المرأة والرجل في الحياة العامّة والخاصّة، كما ينظّمها الاسلام الحنيف، ويُحدّدها في إطار قانوني مميّز، كما استعرضت عمل المرأة في المجتمع، ودورها الاجتماعي، والسياسي والاقتصادي..

هذا ولم يَغِبْ عن البال أنّ هذه الدراسة قد عقدت فصلاً لدراسة النصوص الاسلامية المتعلّقة بشؤون المرأة، ووضعت تصوّراً عن الخلل الذي تسبّب في مساهمة بعض النصوص في تشويه الصورة الحقيقية لواقع المرأة في الحضارة الاسلامية، وعالجت ذلك الخلل بطريقة علمية مناسبة، تعطي انطباعاً للقارئ الكريم كيف يتعامل مع النصوص التي تنتقص من مكانة المرأة، وموقع تلك النصوص من الاطروحة الاسلامية الخاصة بدور المرأة في التغيير والبناء الحضاري الانساني.

وبالله التوفيق وعليه التكلان.　　　　مؤسّسة البلاغ

المرأة
الواقع التاريخي والدور المغيّب

مقدّمة

من دراسة للنصوص الإسلامية الواردة بشأن المرأة سواء أكانت مفاهيم أو تصورات أو أحكاماً وآداباً نجدها تتخذ مسارين:

١ ـ المسار الإستراتيجي العام الذي يحرص الإسلام الحنيف على البلوغ بالمرأة إلى مستواه الأقصى في المجتمع والحضارة وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التوجه المتبنى في أكثر من نص صريح كقوله تعالى في تقرير حقيقة خلق الرجل والمرأة وانّهما جنس واحد متكامل في حقيقة تكوينهما:

﴿يا أيّها النّاسُ اتّقوا ربّكُم الّذي خَلَقَكُم مِن نفسٍ واحدةٍ وخَلَق منها زوجها وبَثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتّقوا الله الذي تساءَلونَ به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيباً﴾. (النساء / ١)

وهذا النص القرآني الكريم إعلان صريح بخطأ كافة التصورات والأفكار والقواعد التي تعارف عليها المجتمع بشأن المرأة ورفض للنظرة الضالّة الشائعة عن خلقها وتكوينها وموقعها في الحياة الإنسانية مما تصورته الجاهليات العربية واليونانية والرومانية والفارسية والمصرية قبل بزوغ نور الإسلام العظيم ـ كما سنرى ـ وتأسيساً على هذه النظرة الإلهية المباركة للمرأة تأتي تفصيلات الأحكام والفرائض والمفاهيم والرؤى حول المرأة كقوله تعالى:

﴿مَن عملَ صالحاً مِن ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياة طيِّبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾. (النحل / ٩٧)

﴿وعدَ اللهُ المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيِّبة في جناتِ عدنٍ ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾. (التوبة / ٧٢)

﴿ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درجة والله عزيز حكيم﴾. (البقرة / ٢٢٨)

﴿للرِّجالِ نصيبٌ ممّا تركَ الوالدان والأقربون وللنساء نصيبٌ ممّا تركَ الوالدان والأقربون ممّا قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾.

(النساء / ٧)

٢ ـ المسار المرحلي المحكوم بالظرف الفعلي: وهذا المسار يشتمل على مجموعة من الأحكام والمعالجات لواقع المرأة ضمن المفاهيم والأعراف السائدة في عصر التشريع ريثما يحقق الإسلام الحنيف عملية التغيير الاجتماعي الشامل باتجاه أهدافه المتوخاة على مستوى تغيير أفكار الناس وتصوراتهم وأعرافهم الاجتماعية وغيرها كأحكام الإماء في الزواج والدية وما إلى ذلك من أمور..

وهذا المسار في المرحلية ربما ينفعنا كثيراً في تصور كيفية تعامل الإسلام، ودعاته مع العادات والأعراف الموروثة التي تعيشها شعوب العالم المختلفة، هنا، وهناك، وكيف تجري عملية تكييف تلك العادات والأعراف، والمفاهيم السائدة مع القيم الإسلامية، في حركتها باتجاه صناعة الحضارة الإسلامية وفقاً لظروف أي بلد من البلدان، أو أمة من الأمم.

إنّ الباحث لمكانة المرأة في المجتمع الإسلامي السليم ودورها في الحضارة الإسلامية الفاضلة لا بدّ أن يدرك هذه المسارات فيميز ما هو استراتيجي من قيم الإسلام ومعالجاته وما هو مرحلي موقت محكوم بالظروف التي يعيشها الإنسان في عصر التشريع كأوضاع موروثة من المجتمعات السابقة يسعى الإسلام لعلاجها أو تكييفها أو إلغائها رويداً، رويداً لأن بعض القيم والعادات ليس بمقدور أية شريعة أو قانون أن

يلغيها بشكل كامل بقرار سريع وإنما لا بدّ من معالجات وحلول تمارس التدرج والمرحلية في خطتها وحركتها في الواقع، تماماً كمشكلة الرق الذي واجهته الرسالة الإسلامية كواقع قائم مضت عليه قرون طويلة فوضعت له المعالجات الآنية بما هو أمر قائم مع مباشرة العملية التغييرية المتدرجة الواسعة لإزالته من الواقع الاجتماعي في حياة الناس لتحقيق المفهوم المبدئي العام للإسلام القائم على أساس أن الناس سواسية وان أكرمهم عند الله أتقاهم وان الحرية حق طبيعي لكل إنسان يعيش على ظهر هذا الكوكب..

﴿يا أيُّها النّاس إنّا خلقناكُم من ذكرٍ وأُنثىٰ وجَعلناكُم شُعوباً وقبائلَ لِتَعارَفوا إنّ أكرمكُم عندَ اللهِ أتقاكم﴾. (الحجرات / ١٣)

وهكذا كانت قضية المرأة في الحضارة الإسلامية الفاضلة، تخطيط للمستقبل، وعلاج لمشاكل الحاضر الموروث وأعرافه..

إنّ هذه النظرة الإسلامية الواقعية لشؤون المرأة وكيفية التعامل معها تعيننا أيضاً في اعتماد طريقة مناسبة لمعالجة وضع المرأة القائم في مجتمعاتنا اليوم، حسب ظروف تلك المجتمعات، فقد نصل في بعض المجتمعات إلى معالجات أنسب لأوضاع المرأة قبل مجتمعات أخرى، وذلك بسبب ظروف تلك المجتمعات وظروف نفس المرأة فيها من ناحية الثقافة والتأثر بالحياة القبلية القديمة المغلقة أو الحياة الغربية

المنفتحة، ولذا فالتجربة الإسلامية قد تؤتي ثمارها في هذا المجتمع قبل ذلك المجتمع، وقد تحتاج التجربة الإسلامية المعاصرة إلى نماذج متعدِّدة للتعامل مع هذه المسألة الهامة، حسب طبيعة المجتمعات وظروفها..

وبالله التوفيق.

لمحة عن مكانة المرأة في التاريخ الإنساني

لم نكن نهدف أساساً أن نستعرض ما تعرضت له المرأة من معاناة عبر التاريخ الإنساني في الماضي البعيد والماضي القريب ولا ما تتعرض له اليوم في العديد من المجتمعات لأن التصدي لهذه الظاهرة القديمة الجديدة ليس من أهداف هذه الدراسات التي تعتزم مؤسسة البلاغ تقديمها للقارئ المسلم..

بيد أن من المناسب أن نمر على بعض تلك الظواهر المؤلمة مروراً سريعاً كي تساهم في توفير المقارنة الواقعية بين دعوة الإسلام التحريرية الشاملة للمرأة ومواقف المجتمعات الغافلة عن الله تعالى أو المتمردة على منهج الله تعالى في الحياة ومنه قضية المرأة، وشؤونها، ودورها في بناء الحياة الإسلامية.

فمهما يقال عن المجتمعات التي لاتستظل بهدى الله عزّ وجلّ، وقيمه السماوية المباركة، فأن ابرز معالمها أنها مجتمعات يحكمها التمييز العنصري بين الرجل والمرأة، وهي مجتمعات أحادية النظرة والممارسة بالنسبة إلى تعاملها السلبي مع المرأة، واعتماد على سيادة سلطة الرجل..

فالمرأة في اغلب المجتمعات القديمة، وحتى أكثر المجتمعات المعاصرة، تتعامل مع المرأة كوسيلة للمتعة الجنسية، أو متاع مادي يتصرف به الرجل كما يشاء، تماماً كما يتعامل مع الحيوانات والأثاث المنزلي، وما إلى ذلك..

وهذه بعض صور امتحان المرأة، واذ لا لها في المجتمعات البشرية المختلفة، نذكرها استطراداً:

ففي الجاهلية التي سادت الجزيرة العربية قبل انطلاق دعوة الإسلام الحنيف باشرت بعض القبائل العربية فيها عملية وأد البنات، خوفاً من وقوعهن في الأسر أثناء الغزو، والذي يستشري بين القبائل يومذاك أو لعوامل اقتصادية، حيث الفقر والفاقة..

«وكان الوأد يتمّ في صور قاسية إذ كانت البنت تُدفَن حيّة! وكانوا يتفنّنون في هذا بشتى الطرق، فمنهم من كان إذا وُلِدَت له بنت تركها، حتى تكون في السادسة من عمرها، ثم يقول لأمّها: طيِّبيها، وزيِّنيها، حتى أذهب بها إلى احمائها! وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فيبلغ بها البئر، فيقول لها: انظري فيها، ثم يدفعها دفعاً، ويهيل التراب عليها. وعند بعضهم، كانت الوالدة إذا جاءها المخاض، جلست فوق حفرة، محفورة، فإذا كان المولود بنتاً رمَت بها فيها، وردمتها، وان كان ابناً قامت به معها، وبعضهم كان إذا نوى ألّا يئد الوليدة، أمسكها مهينة،

إلى أن تقدر على الرعي، فيلبسها جبّة صوف أو شعر، ويرسلها في البادية ترعى له إبله ...»[1].

وممّا يشير إلى عمق هذه المأساة الإنسانية ما تذكره السيرة النبوية الشريفة:

إنّ قيس بن عاصم التميمي جاء إلى النبي ﷺ، فقال: إني وأدت ثماني بنات في الجاهلية، فقال ﷺ: فأعتق عن كل واحدة رقبة.

قال: أنّي صاحب إبل، قال ﷺ: فاهدِ الى من شئت عن كل واحدة بدنة[2].

وكانت المرأة عند الرومان متاعاً مملوكاً للرجل، وسلعة من السلع الرخيصة يتصرف بها كيف يشاء، وأنها كائن بلا نفس، وانها رجس لاترث الحياة الأخروية ويجب أن لا تأكل اللحم، ولا تضحك، وعليها أن تقضي أوقاتها في الخدمة، والخضوع[3].

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ٨/ ٤٧٩، ط دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٩م، بيروت. والكاشف: للزمخشري في تفسير سورة التكوير مثله.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي الطبرسي ١٠/ ٤٤٢، ط بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٣) حق الزوج على زوجته وحق الزوجة على زوجها: ط عبد الله العفيفي، ص ١٢ـ١٣.

وفي ايران القديمة، كان الرجل يجمع في بيته عدّة مئات من النساء[1]..

وكان خسرو «برويز» يحتفظ بثلاثة آلاف امرأة في حريمه، فهو لم يكن يشبع أبداً من هذه الرغبة..[2].

ولم يكن تعدّد الزوجات شائعاً فحسب بل مواقعة الرجال لنساء الاخرين أيضاً[3].

وفي أوربا القرون الوسطى، كانت النظرة إلى المرأة، كما لخّصها ترتوليان أحد قادة الفكر الأوربي في القرون الأوربية الوسطى «إنّها مدخَل الشيطان إلى نفس الإنسان، وإنّها ناقضة لقانون الله، مشوّهة لصورة الله»..

ولم تستطع شعارات التحرر والمساواة، وتحرير المرأة التي رفعت في القرن العشرين أن تحقق كرامة المرأة وسعادتها، وإنما تطرفت في تبني ما حاربته المجتمعات القديمة أو كررته في صور جديدة:

---

(١) نظام حقوق المرأة في الأسلام: الشيخ مرتضى مطهري، ترجمة أبو زهراء النجفي، ص ٢٦٩.

(٢) مسألة الحجاب: الشيخ مطهري، ص ٨٧.

(٣) نظام حقوق المرأة في الأسلام، ص ٢٦٩.

فالوأد للاناث لا يزال يمارس في القرن العشرين في بعض بلدان العالم، فقد قامت نساء صينيات، وهنديات مؤخراً بعملية وأد مباشرة حيث تعمّدن بإجهاض الاناث من أرحامهن، كما ذكرت وسائل الأعلام أنّ عيادة طبية في لندن تقوم بعملية فرز الحيوانات المنوية لاستخلاص الجينات الذكورية، واستبعاد المؤنثة منها..

هذا إضافة إلى الوأد الثقافي الذي تواجهه المرأة في كثير من المجتمعات[1].

وحول تجاوز المهام المركزية للمرأة، ودورها الحقيقي في البناء الحضاري السليم، وما وقعت فيه أوربا الحديثة من أخطاء بسبب مبالغتها في تجاوز وظيفة المرأة في الحياة الإنسانية يقول غوربا تشوف في البير يسترويكا ما يلي: «لقد قضت الدولة السوفيتية بحزم وبلا هوادة على كل تمييز بحق المرأة مما كان يميز روسيا القيصرية. وهي قد ساوت بينها وبين الرجل بالكامل من الناحية الاجتماعية وضمنت هذه المساواة بالقانون. نحن نعتز بما قدمته السلطة السوفيتية للنساء: الحق المتساوي مع الرجل في العمل ولا وجود لأية فوارق في الأجور والحماية الاجتماعية. وحصلت المرأة على كل الامكانيات للحصول

(١) المرأة واللغة، عبدالله الغذّامي، ط ١، ١٩٩٦، الدار البيضاء، ص١٧.

على التعليم والترقية والمشاركة في النشاط الاجتماعي والسياسي. ولو لا المساهمة النشيطة للمرأة وتفانيها ما كان بإمكاننا بناء المجتمع الجديد ولا الصمود في الحرب ضد الفاشية.

وببساطة لم يعد لدى المرأة العاملة في البناء والانتاج ومجال الخدمات وفي العلوم ولدى تلك الغارقة بالعمل الابداعي، الوقت الكافي للشؤون الأكثر حيوية وهي شؤون الأسرة. وتبين أن مصائب كثيرة، سواء في مجال تصرف الأطفال والشبيبة أو في مسائل الأخلاق الاجتماعية والتهذيب حتّى في الانتاج مرتبطة بضعف الأواصر العائلية وهبوط مستوى الواجب الأسروي.

هذه هي المفارقة التي حدثت رغماً عن أنه كان لدينا طموح مخلص تم التأكيد على صحته سياسياً بتساوي المرأة مع الرجل في كل شي. ولكن بدأنا تصحيح هذا التقصير الذي كما لو كان قد أصبح من أفضليات المجتمع، في مسار البيريسترويكا. ولذا تناقش عندنا الآن بجدة ونشاط في الصحافة والمنظمات الاجتماعية بل حتّى في كل مكان، في العمل والمنزل، مسألة كيفية استعادة المرأة لوضعها الحقيقي كامرأة»[١].

لقد تحدّث غورباتشوف بصراحة مناسبة عن فشل التجربة

---

(١) غورباتشوف: ص ١٣٠ ـ ١٣١.

الحضارية المعاصرة لأوربا الشرقية في تعاملها مع المرأة حين وضعتها في غير موضعها وتجاوزت بها عن موقعها الطبيعي الذي خلقه الله عزّ وجلّ له لتثير الحياة وتبني الحضارة الإنسانية الرفيعة جنباً إلى جنب الرجل، كل حسب خصائصه البيولوجية، والسيكلوجية الخاصة التي تؤهله لأداء دوره الممكن، والمكمل لشقيقه في عملية البناء الحضاري الكبير، ومن خلال عملية دقيقة لتقاسم الأدوار والمهام العظيمة.

شقائق الرجال

ورد عن رسول الله ﷺ القول المُعبِّر التالي: «إنّما النساء شقائق الرجال»[١].

إذ يلخص هذا الحديث الموحي الجامع حقيقة العلاقة بين الرجل والمرأة في الحياة الإسلامية وحقيقة كونهما يعودان إلى أصل واحد، على أن العلاقة المذكورة محكومة بالخصائص الطبيعية، التي يمتاز بها أحدهما دون الأخر -كما سيتضح في ثنايا البحث-، فالشقيق في المصطلح اللغوي يفيد الانتهاء إلى أب وأم واحدة[٢]، وهو اكثر قرباً من الأخ غير الشقيق الذي يختلف أحياناً في الأم دون الأب وأقوى لحمة فكثير من الأخوة من البشر يرجعون إلى أب واحد، إلّا أنّ أمهاتهم تتعدّد.. أمّا الأشقاء، فانهم يجتمعون في الأب والأم معاً..

---

(١) رواه أبو داود، صحيح الجامع الصغير، ٩ / ٢٣٢.

(٢) انظر معنى الشقيق والشقيقة باب الشين من كتاب «محيط المحيط»، بطرس البستاني، ص ٣٧٥، ط بيروت، ١٩٧٧.

وهذا القول النبوي يشكل أوضح الدلالات على الكيان الواحد للجنسين.

إذ أنّ النبي المعصوم عليه وآله الصلاة والسلام، كان يعني ما يقول حين استعمل هذا المصطلح «شقائق» دون لفظة «اخوة» مثلاً.

ففي معاجم اللغة العربية إشارة واضحة إلى أن هذه اللفظة وما هو على شاكلتها تعني أن هناك شيئاً واحداً انشق إلى نصفين متساويين، ومنه الاشتقاق في اللغة، وهو نزع لفظ من آخر، كما ورد في اللغة إنّ الشق من كل شيء هو: ما يطلق على النصف من كل شيء...[1].

وهكذا يتضح أن استعمال النبي ﷺ لهذه اللفظة، إنما أراد من خلالها أن يحدد الموقع الحقيقي للمرأة في الوحدة الإنسانية وعلى ضوء ذلك تحدد المهام والحقوق في إطار الخصائص الذاتية لكلا الجنسين الذي يشكل أحدهما نصف الأخر.

إنّ قراءة النصوص الأصيلة والتدبّر فيها، سواء كانت نصوص قرآنية أو أحاديث نبوية، تعكس الواقع الحقيقي لفلسفة الخلق، ووجود الذكر، والأنثى، وتكامل دورهما في هذا الوجود، لتحقيق

---

(١) محيط المحيط، باب الشين، لفظة شقيق، ص ٤٧٥.

مقصود الله من الخلق.

وتكامل هـذه الأدوار الحـضارية العـظيمة لا بـدّ أن تـتأتّى مـن اخـتلاف المـهام، التي يـتطلبها الاخـتلاف في التركـيبة الجسـمية، والنفسية بما يناسب المهام العظيمة التي أوكلت لكل من الجنسين، ليتم التكامل على أحسن وجه واكمله، ولعل التعبير القـرآني الآتي يـبين جانباً من الحقيقة الكبرى حين يقول:

﴿أو مَن يُنَشَّؤا في الحلية وهو في الخِصام غير مُبين﴾.(الزخرف/ ١٨)

حيث أنّ الضرورة الكونية، فرضت أن تنشأ المرأة في الحلية، فتميل إلى الجمال، والاغراء، لحاجة الوجود إلى ذلك، لا نقصاً فيها كشقيق للرجل، ولا انزالاً للمرأة عن مستوى الإنسانية الرفيعة أبداً.

هذا و تؤكد هذه المعاني جملة في النصوص الأصيلة الأخرى:

﴿يا أيّها الناسُ اتّقوا ربّكم الّذي خلقَكُم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾. (النساء/ ١)

﴿فاستجابَ لَهُم ربّهم أنّي لا أضيّع عملَ عاملٍ منكُم من ذكرٍ أو أنثى بعضكُم من بعض﴾. (آل عمران/ ١٩٥)

فالمرأة والرجل كلاهما بشر من أصل واحد، لا تفضيل لأحدهما

على الآخر الا بدرجة العطاء، وأداء المسؤولية، والنهوض بالمهام الموكلة إليهما في إثارة الحياة، وبناء الحضارة، وتحقيق أهداف الرسالة الإلهية المباركة.

﴿ومَن يعمل من الصّالحاتِ مِن ذكرٍ أو أنثى وهو مُؤمن فأولئكَ يدخلونَ الجنة ولا يُظلَمونَ نقيرا﴾. (النساء / ١٢٤)

وبعد أن يرسخ الإسلام الحنيف هذا المبدأ الحق، وهو كون الرجل والمرأة من عنصر واحد، وأصل واحد، لا كما ترى الجاهلية يومذاك، يشيّد كافة البنى الفوقية للبناء الحضاري الجديد للإنسانية التي يشارك الرجل والمرأة معاً في بناء حضارتها الطاهرة كل بامكاناته الفعلية المتاحة ـ كما سيتضح ـ.

وهناك سلسلة من المشاريع والخطط المتسلسلة، التي يترتب بعضها على بعض في منظومة تشريعية رائعة، ويستند بعضها على بعض، ويكمل بعضها بعضاً...

ويمكننا أن نجملها هنا في المحاور الآتية:

تحرير المرأة من الظلم الاجتماعي

قبل تشريع الإسلام الحنيف لحقوق المرأة وواجباتها في المجتمع الذي يشكله الإسلام، ويقيمه، حدّد موقفه صريحاً من المظالم الاجتماعية التي تصبّها الجاهلية على كيان المرأة، ولذا نجد أن نداءات تحرير المرأة من الظلم، وردت أساساً في السور المكية بشكل مبكر جدّاً، وقبل الهجرة الى يثرب، بعدد من السنين واقامة المجتمع الإسلامي الصالح، وما يتطلبه من تشريعات، وقيم.

فحول عادة وأد النساء التي انساقت وراءها بعض العوائل والعشائر العربية في الجزيرة العربية قبل الإسلام[1] يعلن القرآن الكريم موقفه الصارم ضدّ تلك العادة اللاإنسانية، على طريقته

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام: جواد علي /المجلّد الخامس، وهناك وأد معاصر يجري على شكل إجهاض الاناث من أرحام النساء حيث تستعمل التقنية المعاصرة لارتكاب هذه الجرائم.. راجع كتاب المرأة واللغة، ص ١٧ مصدر سابق.

الخاصة في تناول القضايا، والأحداث.

﴿وإذا الموؤدة سُئِلَت * بأيِّ ذنبٍ قُتِلت﴾. (التكوير/ ٨ـ ٩)

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحنُ نرزقهُم وإيّاكُم انّ قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾. (الإسراء/ ٣١)

وحول ظاهرة احتقار المرأة، وعدم مساواتها مع الرجل في المنزلة الاجتماعية والنظرة العامة يقرر القرآن الكريم ما يلي:

﴿وإذا بُشِّـرَ أحدهم بالأنثى ظلّ وجـهه مسـودّاً وهـو كـظيم * يتوارى من القومِ من سوء ما بُشِّرَ به أيمسكهُ على هَوْن أم يدسّهُ في الترابِ ألا ساءَ ما يحكمون﴾. (النحل/ ٥٨ ـ ٥٩)

ويشجب القرآن الكريم ظاهرة التمييز بين المرأة والرجل في تعاطي الطيّبات والاستفادة من الخيرات، التي لم يحجبها الله عزّ وجلّ عن أي من الجنسين أساساً حيث خلقها لذلك ولكن الظلم الاجتماعي والتمييز بين الجنسين هو الذي أوجد هذه الحالة في بعض المجتمعات.

﴿وقالوا: ما في بطونِ هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم عـلى أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انّه حكيم عليم﴾. (الأنعام/ ١٣٩)

وحول التعامل مع المرأة، كالأثاث، والمتاع المادي، ومصادرة حريتها في حق الزواج والميراث، والحقوق المادية، يقف القرآن الكريم شاجباً لهذه الظاهرة، ولاغياً عنها في مجتمعه الذي يبنيه، ويشيد أسسه، يقول الله عزّ وجلّ:

﴿يا أيّها الذين آمَنوا لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهنّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنّ إلّا أن يأتين بفاحشة مبيّنة وعاشروهنّ بالمعروف فان كرهتموهنّ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾. (النساء / ١٩)

الإسلام يؤكّد شخصية المرأة واستقلالها

بعد الادانات الصريحة لكل المواقـف، والفـعاليات التي تـؤديها المجـتمعات الجاهلية، ضـدّ المـرأة، وكـرامـتها، ومـوقعها في الحـياة الإنسانية الفاضلة يباشر الإسلام عملية تحديد موقع المرأة في الحياة. والحضارة، والبناء الاجتماعي..

فالقرآن الكريم حين يتناول المرأة، ويحدد موقعها، لا يـذكرها في موقع هامشي او جانب مقطعي من مسـيرة الانسانية، وانما يـضعها بجانب الرجل، سواء بسواء:

﴿واللّيل إذا يغشى * والنهار إذا تجلّى * وما خلق الذّكر والأُنثى * إنّ سعيكم لشتّى﴾. (اللّيل / ١ ـ ٤)

﴿ولا تتمنّوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض للرجال نـصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب ممّا اكتسبن واسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شيٍ عليماً﴾. (النساء / ٣٢)

﴿يا أيّها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً

منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهنّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾. (الحجرات / ١١)

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينا﴾. (الأحزاب / ٣٦)

وإذا شئنا أن نمضي قدماً في استعراض النصوص الإسلامية الأصيلة التي تتحدث عن مكانة المرأة، وموقعها الى جنب الرجل، فى الخلق والتدبير وحمل المسؤولية، والطاعة، والبناء الحضاري، والتنمية الاقتصادية وما الى ذلك لاحتجنا الى عرض قائمة طويلة، من هذه النصوص الكريمة التى غفل عنها السذّج، وعمي عنها المنحرفون، وحجب حقائقها المغرضون.

ومن شاء المزيد من النصوص القرآنية الخاصة بهذه المسألة فليراجع الآيات التالية: سورة الفتح /آية ٢٥ ـ سورة نوح / اية ٢٨ ـ سورة محمد ﷺ /آية ١٩ ـ سورة الحديد /آية ١٢ ـ سورة التوبة / آية ٧٢ ـ سورة الحديد / آية ١٨ ـ سورة الأحزاب /آية ٣٥ ـ سورة التوبة /آية ٦٧، ٦٨ ـ سورة الفتح /آية ٦، وغيرها كثير.

ومن أوضح النصوص الكريمة التي تتناول الشخصية المستقلّة

للمرأة، وحريتها في الاختيار الحر، واتخاذ المواقع التي تـراهـا، وفـقاً لتلك الحرية، والارادة المستقلة، النص التالي في سورة التحريم:

﴿ضربَ اللهُ مثلاً للّذينَ كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالِحَين فخانتاهُما فلم يغنيا عنهما مـن الله شـيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين * وضربَ الله مثلاً للّذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنّة ونجِّني من فرعون وعمله ونجِّني من القوم الظالمين * ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فَنَفَخْنا فيهِ من روحِنا وصدّقت بكلماتِ ربِّها وكتبهِ وكانت مِنَ القانتين﴾. (التحريم / ١٠ ـ ١٢)

فالنموذج الأوّل من النساء من اختارتا الزيغ والانحراف عن الحق، رغم أنّ شريكي حياتهما من أمثال: نوح الرسول، ولوط النبي عليهما السلام، والنموذج الثاني من النساء كانت آسية بنت مزاحم زوج فرعون زعيم مصر، وطاغوت أفريقيا في عصره إلّا إنها اختارت طـريق الهـدى، وخط الأنبياء عليهم السلام ووقفت تحت راية الله عزّ وجلّ، مُتحدِّية جبروت فرعون الذي كان يدّعي الربوبية فى عصره..

وهكذا كانت مريم بنت عمران عليها السلام، قمّة فى الشـموخ، والهـدى، والإيمان فى عصرها..

وقد بلغت أجيال من النساء القمة في البناء الحضاري الإنساني الرفيع هدياً، وعفّة، وجهاداً، وطهراً من أمثال خديجة الكبرى، والصديقة الزهراء، وزينب بنت علي، وسكينة بنت الحسين وأم سلمة وغيرهنّ من عقائل آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيدات نساء هذه الأمّة كل ذلك بفضل اخلاصهنّ وصدقهنّ مع الله تعالى، واختيارهنّ لسبيل الهدى، واندماجهنّ بمنهاج الله وخط رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، حتّى تنزّلت كلمات الله عزّ وجلّ قرآناً يتلى آناء الليل وأطراف النهار يشيد بفضل من بلغت قمة الفضل من النساء.

﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾. (الأحزاب / ٣٣)

﴿فقُل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهِل فنجعَل لعنة الله على الكافرين﴾. (آل‌عمران / ٦١)

إنّ مَن يقرأ ما وراء هذه الكلمات بوعي، وصدق يجد نموذجاً من النساء[1] ـ في هاتين الآيتين ـ يحني العالم جبهته اقراراً بفضلها، وسموّها في عالم الكمال والفضيلة، والاخلاص، تلك هي فاطمة

---

(١) للإحاطة بمعاني الآيتين المذكورتين يراجع تفسير الميزان: للعلّامة المرحوم السيد محمد حسين الطباطبائي رحمه الله.

الزهراء بنت رسول الله ﷺ، التي لم يبلغ بعض فضلها، ومـقامها، ومن سارت على خطاها من نساء المسلمين ملايين وملايين الرجال.

المرأة في الأُسرة والمجتمع

اتضح مما سبق من حديث طبيعة المكانة التي تحتلها المرأة في مجتمع الحضارة الإسلامية، والموقع الذي أحلها الإسلام الحنيف فيه جنباً الى جنب مع الرجل، وفقاً للنصوص الدينية المقدّسة، أمّا الشروح، والتفسيرات لبعض تلك النصوص، وما جرى فيها من تعسف وتزوير بحكم التأثر بالواقع الاجتماعي، والثقافات الشخصية للمفسر أو الفقيه وحتّى للراوي، الذي يتحكّم أحياناً ببعض الروايات حسب ذوقه الاجتماعي، والثقافي.

فانّها أعجز عن أن تعكس المكانة التي حددها الإسلام الحنيف للمرأة في المجتمع الذي يصنعه الإسلام ويشيده، حيث يواجه الباحث في شؤون المرأة في مجتمع الحضارة الإسلامية نوعين من الآثار، يمثل أحدهما: النصوص الأصيلة التي تشكّل النصوص الدينية المقدّسة التي وردت في القرآن الكريم، أو صدرت مباشرة من المعصوم عليه السلام، وهناك آثار وروايات ـ وهي تشكّل النمط الثاني من تلك الآثار ـ لم تصل الى مستوى النص المقدّس في قيمتها الدينية وهي أما أن تكون

قد صدرت من صحابي أو تابعي أو فقيه أو حاكم أو مفسر، وهذه النماذج جميعها لا تعكس أصالة النص الديني، ولا قدسيته في كثير من الأحيان..

على أننا قد نواجه نصوصاً مقدسة اسيء فهمها أيضاً، فاستعملت للحط من مكانة المرأة في المجتمع، والحياة، والحضارة، رغم أنها مربوطة بزمن معين أو حادث خاص أو حالة خاصة، وهذا النوع من النصوص يحتاج الى عقل مفتوح للتعامل معه، ومعرفة خلفياته وأسباب صدوره، تماماً كما نتعامل مع أسباب النزول بالنسبة للآيات القرآنية الكريمة...

هذا ومن الجدير بالذكر أن بعض الأحاديث، والروايات قد تصدّى لوضعها بعض الوضاع التقليديين الذين ابتلي بهم الإسلام الحنيف عبر عصور مختلفة، كالعصر الأموي مثلاً الذي شهد أسوأ عمليات التزييف للأحاديث النبوية، والدس في السنة الشريفة لأهداف سياسية، وثقافية ذكرها المؤرّخون[1].

إنّ مشكلة النصوص الخاصة بشؤون المرأة في الحياة الإسلامية إنها تعرّضت الى التعسّف. والتزييف تبعاً للتزييف الذي حصل في هيكلية

(١) انظر نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ١١ / ٤٤ـ٤٦.

الثقافة الإسلامية التي صاغتها النصوص الدينية المقدسة الصادرة من الحق تعالى أو من رسـوله الأعظم ﷺ، وذلك بعد الانتكاسة التي حلت بالمسلمين في العهد الأموي، وفتح الروافد الجاهلية على الثقافة الإسلامية من قبل المتصدين للقيادة في حياة المسلمين العامة حـيث فتحت روافد الثقافة النصرانية واليهودية على الثقافة الإسلامية من خـلال بـعض العـناصر التي أسلمت حـديثاً ـ ربّما لأغـراض سياسية وثقافية ـ مثل كعب الأحبار، وتميم الداري، وأمـثالهما الذيـن كان لهم دور خبيث ومؤثر في تسلل الثقافة الإسرائـيلية الى الحـياة الإسـلامية، علاوة على الردة الثقافية التي حدثت في العهد الأموي، بالعودة الى الثـقافة الجـاهلية العـربية المـألوفة، ومـا تـعكس مـن قيم ومفاهيم، وعادات قبلية رجعية اضافة الى ثقافات البلاد المفتوحة كالثقافة الرومية الوثنية ـ النصرانية في بلاد الشام التي تأثر بها حكام الدولة، وفقهاؤهم.

والثقافة الفارسية الجاهلية القديمة التي تأثرت بها المناطق المجاورة حتّى اننا نجد العديد من الشعراء، والمستشارين السياسيين من غـير المسلمين في القصور والدواوين الأموية، كالأخطل، الشاعر النصراني المقرّب من القصر ولسانه الاعلامي، وسرجون الرومي المسـتشـار السياسي للقصر الأموي منذ عهد معاوية، وأمثال ذلك...

إنّ هذه الأمور، وأمثالها هي التي ساهمت بشكل أو بآخر في التعتيم على حقائق الإسلام الناصعة، وتزييفها، والاضرار بها، ومنها موقع المرأة في المجتمع الإسلامي، والحضارة الإسلامية المباركة.

إنّ الدارس لدور المرأة في الأسرة، والمجتمع، والعمل الاجتماعي، والسياسي ودورها في الاقتصاد، والثقافة، والفن، وما الى ذلك يجد النصوص الأصيلة في الشريعة الإسلامية الخاتمة تمنح المرأة دوراً مماثلاً لشقيقها الرجل، إلّا فيما تفرضه قدراتها الطبيعية، والنفسية المتاحة، اضافة الى رعاية الإسلام لمبدأ الفضيلة في المواقع التي تتحرّك فيها المرأة وتؤدي مسؤوليتها من خلالها، ودون ذلك لم توضع أية حواجز في طريق المرأة للوصول الى أي موقع اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو ثقافي...

فعلى صعيد الخصائص البيولوجية، والنفسية المتميزة للمرأة نترك الدراسات العلمية الحديثة لتقول كلمتها في ذلك.. يقول الدكتور الكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل بسبب أبحاثه الطبية المتميزة حول خصائص الجنسين: الرجل والأنثى ما يلي[1].

(١) الإنسان ذلك المجهول: الكسيس كاريل ترجمة شفيق أسعد فريد، ١٠٨ ـ ١٠٩، ط بيروت ١٩٨٩.

«إنّ الاختلافات الموجـودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية، ومن وجود الرحم والحمل، أو من طريقة التعليم. إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك. .إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كلّه بمواد كيمائية محدّدة يفرزها المبيض. ولقد أدّى الجهل بهذه الحقائق الجـوهرية بالمدافعـين عن الأنوثة الى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً، وان يمنحا قوى واحدة ومسـؤوليات متشابهة والحقيقة ان المرأة تختلف اختلافاً كـبيراً عـن الرجل. فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها.. والأمـر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها. وفوق كل شيء، بالنسبة لجـهازها العصبي.

فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبي.. فليس في الامكان احلال الرغبات الإنسـانية محلها. ومن ثم فـنحن مضطرّون الى قبولها كما هي. فعلى النســاء أن يـنمين أهـليتهنّ تـبعاً لطبيعتهنّ دون أن يحاولن تقليد الذكور، فان دورهنّ في تقدّم الحضارة أسمى من دور الرجال، فـيجب عـليهنّ ألّا يـتخلين عـن وظـائفهنّ المحدّدة».

إنّ اختيار هذا النص العلمي يراد منه اعطاء صورة واضحة عـن

التمايز البيولوجي والسيكولوجي بين المرأة والرجل، الأمر الذي يساهم في تحديد الوظائف التي تسند الى كل منهما بناء على تلك المؤهلات التي يشير العلم الحديث إليها مما يؤيد التصور الإسلامي لاسناد المهام، وتمييز الأدوار بين الجنسين في المجتمع المسلم.

هذا ويمكننا أن نخرج بتصوّرات كاملة عن خصائص الرجل والمرأة ودور تلك الخصائص في بناء الحياة الإنسانية، من قراءة كتاب الدكتور كاريل، الإنسان ذلك المجهول أو كتاب، دراسة الإنسان للدكتور رالف لنتون الذي كان من أعاظم علماء الانثروبولوجيا في العالم[(١)].

كذلك يمكن ملاحظة هذه الحقائق الطبيعية للجنسين من خلال ما عرضته الدكتورة كاميليا ابراهيم عبد الفتاح في كتابها: «سيكلوجية المرأة العاملة»، وأمثالها من مؤلفات علمية محايدة.

إنّ أي مشروع حضاري بنّاء لابد له من دراسة خصائص المرأة والرجل البيولوجية والسيكلوجية قبل أن يقدم على توزيع الأدوار عليهما لخلق حضارة إنسانية راشدة.. الأمر الذي عمد إليه الإسلام الحنيف، وقدم للإنسانية من أجل ذلك منظومة تشريعية مفصلة،

---

(١) المصدر ترجمة عبدالملك الناشف ط مؤسسة فرنكلين بيروت ـ نيويورك. انظر: فصل الوضع والدور، ص ١٥٥ وما بعدها.

وضعها خالق الإنسان ذاته الذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، من أجل أن تبنى على ضوئها الحياة، وتقام الحضارة، وتؤسس الأمجاد الإنسانية الفاضلة.

وجهان لغاية واحدة

ذكرنا ان الرجل والمرأة في المنطق الإسلامي شقيقان، كلاهما من اصل واحد، وأب وأم واحدة، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة فوصفهما بأنهما من نفس واحدة، خلق منها زوجها، ثم بثّ منهما الرجال والنساء[1]، ليبنوا الحياة ويسخروا خيرات الوجود كما شاء الله تعالى لهم ذلك..

وحالة النفس الواحدة تبقى مرافقة لمسيرة الإنسان ما دام على ظهر هذا الكوكب فلا الرجل قادر على بناء الحياة وإقامة الحضارة دون المرأة و لا المرأة بمقدورها ان تؤدي من ذلك شيئاً دون الرجل.

وليست حاجة أحد الجنسين للآخر بيولوجية، تتعلّق بمسائل الجنس وديمومة النسل الإنساني، وأجيال البشرية فحسب وإنما هناك أمور أخرى تحتل نفس المواقع من الأهمية، والأولوية لذا يمكننا أن نقسم حاجة الجنسين لبعضهما إلى المحاور التالية:

---

(١) النساء / ١.

١ ـ الحاجة الجنسية لبعضهما: وهذه الحاجة الطبيعية من الحاجات المشتركة بين الجنسين فكل منهما بحاجة إلى الجنس الآخر، وليس من الصحيح القول: انّ المرأة متعة للرجل كما أشاعته الثقافة الرجعية البائسة و إنما الرجل متعة للمرأة كذلك سواء بسواء..

إنّ الثقافة الاجتماعية السائدة في المجتمعات البشرية المختلفة هي التي عمقت الاعتقاد بان المرأة متعة للرجل حيث يغذي هذا التصور تحرك الرجل من اجل الزواج ،وقيامه بعدة فعاليات اجتماعية لتحقيق هذا الغرض كالخطبة، والتعبير عن رغبته للزواج وما إلى ذلك.. بينما لا تمارس المرأة هذا الدور خصوصاً في المجتمعات الشرقية بسبب الحالة الثقافية والأعراف الاجتماعية الخاصة التي تمنع من ذلك.

إنّ هذه الأعراف هي التي ساهمت بشكل أو بآخر باعطاء الانطباع المذكور بينما نجد أن الثقافة الإسلامية الأصيلة تضع زمام المبادرة بيد المرأة و الرجل على حدٍّ سواء:

عن محمد بن مسلم عن حفيد رسول الله أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: زوّجني، فقال: من لهذه؟ فقام رجل، فقال: أنا يا رسول الله، قال: ما تعطيها، قال: ما لي شيء.. إلى أن قال.. فقال: أتحسن شيئاً من القرآن؟ قال: نعم، قال: قد زوّجتكها

على ما تحسن من القرآن، فعلّمها إيّاه[1].

ـ عن أبي عبد الله الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: في رجل يريد أن يزوج أخته، قال: يؤامرها، فأن سكتت فهو إقرارها، وأن أبت لم يزوجها، قالت: زوجني فلاناً زوجها ممن ترضى[2].

ـ استشار عبد الرحمن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في تزويج ابنته لابن أخيه، فقال: افعل ويكون ذلك برضاها، فأن لها في نفسها نصيباً، واستشار خالد بن داود أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام في تزويج ابنته علي بن جعفر، فقال عليه السلام: افعل، ويكون ذلك برضاها، فأن لها في نفسها حظاً[3].

ـ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت: يا رسول الله: ما أنقم على ثابت في دين ولا خلق، إلّا إنّي أخاف الكفر، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فتردّين عليه حديقته، فقالت: نعم، فردّت عليه، وأمره، ففارقها[4].

---

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ٧ / ١٩٥، (باب عقد النكاح).

(٢) وسائل الشيعة، ٧ / ٢١١، باب النكاح.

(٣) نفس المصدر، ٧ / ٢١٤.

(٤) تحرير المرأة في عصر الرسالة: عبد الحكيم أبو شقة، ١٧٥/١، ط ١٩٩٠م، رواه عن البخاري. تخاف الكفر: تقصد كفر المعاشرة، سوء المعاشرة.

ـ وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: ان جارية جاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقالت له: إن أبي زوّجني من ابن أخ له، وأنا كارهة له. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أجيزي ما صنع أبوك فقالت: لا رغبة لي فيما صنع أبي، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: اذهبي، فانكحي مَن شئت[1].

وهكذا نجد الكثير من الأحاديث الشريفة التي تمنح الحرية للبكر الرشيدة أن تختار من تشاء من الأزواج، على أن هناك روايات أخرى تفيد أنّ للأب ولاية على البكر أمّا مطلقة أو على أن لا يستقل بالرأي دونها، وقد ناقشها الشيخ محمدجواد مغنيه مناقشة مستفيضة معتمداً على بعض الروايات الأكثر صحة، وشهـرة، ومستفيداً من آراء كبار الفقهاء، وقد انتهى، بما انتهى إليه صاحب الجواهر رحمه الله في عدم الحاجة إلى ولاية الأب في زواج البكر الرشيدة على مستوى الوجوب..

وما أروع ما وجّه به الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام سائليه حول هذه المسألة حيث قال: إذا كانت المـرأة مـالكة أمـرها، تـبيع، وتشتري، وتعطي مالها من تشاء ـ أي غير سفيهة ـ فانّ أمرها جائز تتزوّج إن شاءت بغير ولي، وان لم تكن كذلك، فلا يجوز تزويجها إلّا

والحديقة: كان مهرها حديقة.

(١) فقه الامام جعفر الصادق، محمد جواد مغنية، ٣ / ١٣٩.

بأمر وليها[1]..

فولاية الأب على الفتاة أو عدمها، تفرضه حالة الفتاة نفسها من حيث تمتعها بالرشد أو فقدانها له، والرشد في منطق الشريعة، هو حالة تعكس حسن تصرّف الفتاة وحسن اختيارها كما يستفاد من الروايات الشريفة الآنفة الذكر.

وهكذا يتضح من خلال هذه الروايات و غيرها أن الشريعة الإسلامية لا تقيد حرية المرأة في اختيار شريك حياتها أبدا، كما هو موقفها من الرجل، وما نجده في بعض المجتمعات من عادات مغايرة، إنما هو مغاير لروح النصوص الاسلامية الأصيلة المقدسة.

٢ ـ حاجة الجنسين لتكوين الأسرة: ليس بمقدور الرجل أن يكوّن أسرة بمعناها الاجتماعي دون المرأة، كما ليس بمقدور المرأة أن تشكل كيان الأسرة دون الرجل..

وفي هذه المؤسسة الإنسانية يتوفّر للرجل والمرأة في إطارها مجموعة من الأهداف والمرامي الإنسانية الضرورية كالاستقرار، والراحة النفسية والرحمة والتكامل في الحاجات البيولوجية، وغيرها..

(١) نفس المصدر ص ٢٣٨.

وإذ عدنا إلى أهمية الأسرة في الحضارة الإنسانية الفاضلة، لوجدنا النصوص الإلهية المقدّسة تعلي من شأنها وتضعها في أرفع مقام، وأجلّه .. يقول الله عزّ وجلّ وهو يعرض أهمية هذه المؤسسة الإنسانية العظيمة:

﴿ومِن آياته أن خلقَ لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة ...﴾. (الروم / ٢١)

﴿هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ ....﴾. (البقرة / ١٨٧)

وهكذا يعتبر القرآن الكريم هذه المؤسسة الإنسانية المباركة «الأسرة» من آيات الله عزّ وجلّ، ومن نعمه الكبرى، التي لم يتوفر مثلها لأي من الكائنات الحية...

وكأي مؤسسة إنسانية في حياة الناس لابد من تقسيم الفعاليات و المهام فيما بين عناصرها وهكذا كان الأمر بالنسبة لمؤسسة الأسرة حيث أوكلت المهام، ووزّعت الوظائف بين الجنسين تبعاً لخصائص كل من الجنسين .. فالمرأة بسبب خصوصياتها التكوينية أنيط بها الحمل والرضاع وتربية الأطفال، وما يحيط بهذه المهمة العظمى من وظائف و فعاليات لا تتوفر للرجل خصائص القيام بها بيولوجياً...

وبناء على نهوض المرأة بهذه المهمة الإنسانية العظيمة، اهتمت

الشريعة الإسلامية اهتماماً استثنائياً بها، وأحلّتها محلاً يغبطها عليه الرجال.. يقول الله جل شأنه:

﴿ووصّينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمّه كرهاً ووضعته كرهاً...﴾. (الأحقاف / ١٥)

﴿ووصّينا الإنسان بوالديهِ حملته أُمّهُ وهناً على وهن﴾.

(لقمان / ١٤)

وقد ورد عن المعصومين عليهم السلام الأحاديث الشريفة التالية حول مكانة المرأة: «عن جابر ـ بن عبدالله ـ قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إنّي رجل شاب نشيط، وأحبّ الجهاد، ولي والدة تكره ذلك، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ارجع فكن مع والدتك، فوَالذي بعثني بالحق نبيّاً لأنسُها بك ليلةً خيرٌ من جهادك في سبيل الله سنة»[1].

عن أبي عبد الله الصادق قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله مَن أبر، قال: أمّك، قال: ثم مَن؟ قال: أمّك، قال: ثمّ مَن؟

---

(١) أصول الكافي: الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني رحمه الله، ٢/١٦٣.

قال : أمّك ، قال : ثمّ مَن ؟ قال : أباك [1].

٣ ـ الرجل والمرأة ركنا المجتمع الإنساني: الإنسـانية تتكوّن من جنسين : الذكر والأنثى ، وليس لأحد الركنين أن يقيم المجتمع الإنساني دون الآخر ـ كما أشرنا ـ فالمجتمع الإنساني هو حصيلة اجتماع الرجل ، والمرأة معاً ونهوضهما بأعباء ذلك المجتمع معاً ، واشتراكهما بالكثير من أعمال المجتمع ، ونشاطاته .

بيد أنّ شطراً من فعاليات المجتمع ونشاطاته لاينهض بها إلّا الرجل دون المرأة ، كما أن أعمالاً محدّدة لا تنهض بهـا إلا المـرأة دون الرجـل ، وهذا التخصص فى النهوض ببعض الفعاليات ، وللمهام من قبل احد الجنسين دون الآخر ناجم عن اختصاص أحدهما دون الآخر ببعض الخصائص البيولوجية والسيكلوجية ...

وهذا التخصص في المهام لدى الجنسين يحقق التكامل في فعاليات المجتمع و مهامه ، ولهذه الحقيقة الراسخة استعمل القرآن الكريم اكـثر الكلمات دلالة على التكامل ، والانسجام و «تـبادل» الأدوار ما بـين الرجل والمـرأة في المجـالات المخـتلفة التي يـفترضها وجـود المجـتمع

(١) نفس المصدر ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

الإنساني الفاضل، وإدامة وجوده ، واستمراريته:

﴿إنِّي لا أضيعُ عملَ عاملٍ منكُم من ذكرٍ أو أنثى بعضكُم من بعض﴾. (آل عمران / ١٩٥)

﴿ولا تَتمنّوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب ممّا اكتسبوا وللنساء نصيب ممّا اكتسبنَ واسألوا الله من فضلِه إنّ الله كانَ بكل شيءٍ عليماً﴾. (النساء / ٣٢)

﴿والمؤمنونَ والمؤمناتِ بعضهم أولياء بعض﴾. (التوبة / ٧١)

دور المرأة في بناء الحضارة الإنسانية

يتعامل الإسلام الحنيف مع المرأة باعتبارها إنساناً، كما يتعامل مع الرجل في هذه المسالة بغض النظر عن الذكورة، والأنوثة اللتين لهما مطالبهما، و خصائصهما أيضاً.. وباعتبار أن المرأة إنسان كالرجل، فإنّ الخطاب الحضاري الذي يوجهه الإسلام لبناء الحياة الكريمة على ظهر هذا الكوكب، يخاطب به الرجل والمرأة على حد سواء..

﴿يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى﴾. (الحجرات /١٣)

﴿هو الّذي أنشأكُم مِن نفسٍ واحدة﴾. (الأنعام / ٩٨)

﴿هو الّذي خَلَقَكُم مِن نفسٍ واحدةٍ وجعلَ منها زوجها ليسكن إليها﴾. (الأعراف / ١٨٩)

على أن أي خطاب عام للمؤمنين أو الناس أو الذين آمنوا يرد دون تخصيص إنما المراد به: الإنسان بشكل عام، «الرجل والمرأة معاً» أما في التشريعات أو المفاهيم التي تخص الطبيعة الخاصة للرجل أو المرأة، فأن الخطاب يتوجه لهذا الجنس أو لذلك، حسب الخصوصية، والمهمة

وطبيعة المخاطب .. من قبيل:

﴿الرِّجال قوّامونَ على النساءِ بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقُوا من أموالهم فالصّالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللّاتي تخافون نشوزهنّ فعظوهنّ واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلاً إنّ الله كان عليّاً كبيراً﴾. (النساء / ٣٤)

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميلِ فتذروها كالمعلّقة وأن تصلحوا وتتّقوا فإنّ الله كان غفوراً رحيماً﴾. (النساء / ١٢٩)

وما عدا الخطابات الإلهية الموجهة للرجل أو المرأة وفق متطلبات التكوين الطبيعي لأي منهما، فإنَّ كافة الخطابات الرسالية موجهة لكل إنسان بغض النظر عن كونه ذكراً أو أنثى كما أشرنا ..

ولذا فأن كافة التوجيهات، والقيم، والمفاهيم، والأحكام التي تبشر بها الرسالة الإسلامية، من أجل صنع المجد، وإقامة الحضارة الإنسانية الكريمة تضع المؤمنين بها أمام المسؤولية الإلهية والتاريخية، لإقامة الحق ونشر الهدى، وتحقيق أهداف الرسالة، وبناء الحياة ..

فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة لدين الله، وبث

مبادئه، وقيمه وأمثال ذلك من مهمات رسالية لبناء الحضارة الإسلامية ينهض بها كل من الرجل والمرأة على حد سواء كل من موقعه:

﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إنّ الله عزيز حكيم﴾. (التوبة / ٧١)

﴿يا أيّها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك﴾. (الممتحنة / ١٢)

فالبناء الحضاري الذي ينهض به الرجل والمرأة معاً، يتم من خلال العديد من المهام، والوظائف:

١ ـ حضور الرجال، والنساء المؤمنين برسالة الله، ومنهاجه في ساحة البناء الحضاري.

٢ ـ أن تتولى تلك الأمة بعضها للبعض في الضراء، والسراء وتتناصر لإقامة الحق، وتتواصى بمواصلة الطريق.

٣ ـ أن تشيع تلك الأمة المعروف، وتصر على هدم المنكر.

٤ ـ أن تقيم فرائض الله عزّ وجلّ كالصلاة، والزكاة، وما إليهما من التزامات، وفرائض.

٥ ـ أن تتمثّل طاعة الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ فيما يأمران، وفيما ينهيان عنه، وأن تكون تلك الطاعة شاملة كاملة، غير انتقائية، فلا تطيع الجماعة في شيٍ، وتعصي في أشياء حسب مصالحها، ورغباتها مثلاً.

٦ ـ هذا ويفيد ذكر الزكاة وأداؤها في الآية المذكورة، كما هو الراجح أن تنفق الأمة الصالحة الواقفة تحت راية الله عزّ وجلّ، من أموالها، وتبذل من إمكاناتها المالية، ما يتوفر للنهضة الإسلامية بها من أن تشق طريقها في معركة الحياة.

ومن مهمّات البناء الحضاري، وإقامة صرح الحق: الدفاع عن الإسلام الحنيف، رسالة، ودعوة، وأمّة، وحريماً، ودولة:

ومسؤولية الدفاع في الشريعة الإسلامية لا تقتصر على الرجال دون النساء أبداً، وإنما يشترك فيها الجميع كل بامكاناتة المتاحة من مال، ورأى، وسلاح، وحماية للجبهة الداخلية وعمليات الدفاع المدني، وأمثال ذلك، واستنفار جميع الطاقات من أجل المواجهة..

إنّ مسؤولية الدفاع عن كيان الرسالة، يختلف في شروطه عن الجهاد الابتدائي كما يقرر فقهاء الشريعة الإسلامية، لأن جهاد الدفاع تفرضه ضرورة الحماية لبيضة الإسلام من هجوم العدو الكافر، أو

الهائلة، مما يقتضي حشد طاقات الأمة كلها لمواجهة عدوان المتربصين، والحاقدين، بما في ذلك طاقات الرجال والنساء.. خلافاً للجهاد الابتدائي ذي الطبيعة الهجومية الذى يقرر وقته ومكانه وأبعاده سلطان المسلمين، والذي يوفر المستلزمات الكافية للقيام بذلك العمل الجهادي المطلوب عند توفر شروطه الذاتية، والموضوعية .. ولذا فأنّ العمل الجهادي الابتدائي لا يشمل المرأة، كما لا يشمل الكثير من شرائح الأمة، خلافاً للجهاد الدفاعي الذي يفرض حالة الدفاع على عموم المسلمين، بمختلف شرائحهم وإمكاناتهم الذاتية [1].

ويمكن للذوق الإسلامي أن يتصوّر عمل المرأة في الميدان الاقتصادي والاجتماعي والإداري، وغيرهما ضمن حالة الجهاد الدفاعي، فاذا تصورنا أن الأمّة الإسلامية في مرحلة البناء الحضاري، ومواجهة التبعية والتخلّف الاقتصادي، والثقافي، وتآمر قوى النفوذ العالمي للاستعمار على وجودها ورسالتها، للحيلولة دون انطلاقتها نحو البناء، والتغيير، وبناء الحضارة تعيش ظروفاً قاهرة من التحدي والعمل المعادي المضاد، فهل يمكن أن نتصوّر أن طبيعة المعركة التي يخوضها

(١) فقه الإمام جعفر الصادق: الشيخ محمدجواد مغنية، ١ـ٢: ٢٦١ـ ١٦٣، ط ٢، بيروت، ١٩٧٧.

المسلمون ضدّ أعدائهم في الجبهات المختلفة تفترض أن تنهض المرأة المسلمة بفعاليات، وأنشطة وأعمال اقتصادية أو إدارية أو ثقافية، أو ميدانية مختلفة لا تنهض بها في الظروف الاعتيادية التي تعيشها الأمّة المسلمة مثلاً؟!

إنّنا إزاء هذه الحالة نتصوّر مستويين من العمل الذي تباشره المرأة في ميدان البناء والتغيير وعمليات المساهمة في التنمية:

أ ـ مستوى الحالة الاعتيادية التي تعيش فيها الأمة حالة طبيعية بالنسبة لإجراء الشريعة، وإقامة العدل، والنصر على الأعداء، والتأثير في العالم، والمنطقة، إضافة إلى تنامي وتيرة التنمية، والعطاء على المستوى السياسي والاقتصادي، والثقافي وما إلى ذلك.

ب ـ مستوى الحالة الاستثنائية كالحالة التي تعيشها الأمة المسلمة في عصرنا هذا حيث الاستلاب، والتدهور، والتبعية والتآمر الكافر عليها، وعدم وضوح الهوية، وتأثير النفاق، وأضرابه، وغير ذلك.. فهل من الصحيح أن نفترض إن المرأة المسلمة تبقى نشاطاتها الحضارية، والاجتماعية، والسياسية كما تواضعت عليه في الظروف الاعتيادية والطبيعية؟

إنّ هذه التصوّرات تساهم بدرجة كبيرة في بلورة دور المرأة في

المجتمع الإسلامي حسب الظروف التي تمر بها النهضة الإسلامية والوضع الذي يواجهه الإسلام الحنيف، كرسالة، والوضع الذي يواجهه المسلمون كأُمّة تنفتح على مهماتها الرسالية من موقع العمل على صناعة المجد، وإقامة صرح الأيمان، وحضارة الأنبياء الطاهرة..

كما أن هذه النظرة تساهم في بلورة المواقف الاستراتيجية لحركة المجتمع، ومهام كل فرد منه، اضافة إلى بلورة المواقف والمهام في الظروف الطارئة، التي تواجهها حركة الأمّة، المسلمة مع مراعاة الواقع البيولوجي، وروح الفضيلة التي ينبغى أن تسود المجتمع الإسلامي، وحضارته الصالحة التي يقيمها الرجل والمرأة معاً.

وفقاً للمفهوم الحضاري الإلهي الذي توحي به الآية الكريمة:

﴿ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درجة﴾.

(البقرة / ٢٨)

﴿المؤمنونَ والمُؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرونَ بالمعروفَ وينهونَ عن المُنكر ويُقيمونَ الصلاة ويؤتونَ الزّكاة ويطيعونَ الله ورسوله أولئكَ سَيرحمهم الله﴾. (التوبة / ٧١)

لماذا غاب دور المرأة عن وعي الناس ؟

إذا كان موقع المرأة في المجتمع الإسلامي بهذا المستوى من الوضوح والواقعية كما لاحظنا من هذا البحث ، فلماذا غيِّبت هذه الحقيقة عن وعي المسلمين والناس لعدّة قرون ؟

هناك العديد من العوامل التي ساهمت في تغييب النظرة الإلهٰية التي حملتها الرسالة الإسلامية الخاتمة بخصوص موقع المرأة في الحياة الإنسانية في إثارة الحياة وصنع الحضارة الإسلامية الفاضلة .. ويمكن أن يسجِّل المتابع لهذه المسألة أسباباً ثقافية ، واجتماعية ، وعنصرية وربما سياسية أيضاً ، يمكننا أن نجملها بالنقاط التالية :

١ ـ الانتكاسة الثقافية التي ألمّت بمسيرة الإسلام التاريخية بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وعودة الثقافة القبلية الرجعية إلى حياة المسلمين رويداً رويداً ، حيث نجد إنّ أغلب الروايات التي وردت للحطّ من مكانة المرأة في سلّم الحياة الإنسانية ، كانت قد رويت في العهد الأموي ، حيث نشطت حركة الوضع للأحاديث على لسان

جوقة من المحدِّثين المرتزقة، الذين رووا الكثير من الروايات المسيئة لدور المرأة في الحياة والحضارة، ونسبوها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.[1]

وقد تعزّزت حالة «الحريم»، والجواري، واعتبار المرأة متاعاً جنسياً في العهد الأموي، والعهد العباسي بشكل مقرف تأثراً بالحياة الرومانية التي كانت بصماتها جلية في بلاد الشام، وبالحياة المجوسية التي سادت في بلاد فارس، حيث غرقت قصور دمشق وبغداد وقرطبة بهذه الظواهر المقلدة لحضارات ما قبل الإسلام، كالحضارة البيزنطية، والحضارة الفارسية وغيرها..

ومن الطبيعي أن يواكب هذه الظاهرة الاجتماعية البائسة حركة أدبية وثقافية مساوقة لذلك الاتجاه، كما يظهر من أشعار تلك المراحل وأدبها ورواياتها الموضوعة.

٢ ـ تأثّر الثقافة الإسلامية العامة (بالإسرائيليات) التي فتحت روافدها على الثقافة الإسلامية في وقت مبكر من خلال مجموعة من اليهود والنصارى المثقفين الذين أسلموا حديثاً، فنقلوا ثقافتهم للفكر الإسلامي من خلال التفسير والرواية وسيرة الأنبياء السابقين عليهم السلام، وقد تأثر بمجموعة من الصحابة والتابعين بهذا التيار الثقافي الذي طرأ

---

(١) انظر مجلّة المعرفة: ٣٧٣ / ٦٢ ـ ٦٣.

على الحياة الإسلامية، ونشط بعد وفاة رسول الله ﷺ[1].

وقد قاد هذا التيار في الحياة الإسلامية كعب الأحبار، وتميم الداري، وتلاميذهم من الصحابة كأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهما، وتسرب تأثيره إلى التفسير، والحديث، والفقه والسيرة، والعقائد..

وقد حمل هذا التيار الثقافي ـ فيما حمل ـ النظرة الخاطئة عن المرأة التي كانت تدعوا إليها ثقافات المجتمع اليوناني، والروماني، والمصري القديم، ممّا أشرنا لبعض معالمها في بداية هذا البحث.

٣ ـ غياب التجربة الإسلامية السليمة، التي تعبّر عملياً عن الحياة والحضارة الإسلامية الأصيلة في مستوى علاقة الرجل بالمرأة أو بالعكس، وموقع كل منهما في بناء الواقع الإنساني الفاضل، وقد برزت هذه الحالة في فترات من حكم العهد الاسلامي بعد رسول الله ﷺ، وطوال الحكم الأموي، والعباسي، وكانت الفترات الأُولى من الحكم، والتجربة في المجتمع ـ بعد وفاة رسول الله ﷺ ـ تعد مراحل تأسيسية، اتخذت كنماذج للتجربة الإسلامية!! في الحياة وبناء المجتمع، حتى أنّ التاريخ يشهد أن بعض الحكام خلال تلك الفترة كانوا من سيّئ

---

(١) أضواء على السنّة المحمّدية: الشيخ محمود أبو رية.

النظرة للمرأة، ومن يرى عدم أهليتها للمساهمة في بناء الحياة..

إنّ الفترات الزمنية الطويلة التي قطعتها هذه العهود، والتجارب في حياة المسلمين، شوّهت كثيراً من الصورة الحقيقية لموقع الرجل والمرأة معاً في بناء الحياة الإنسانية، وشوّهت التصوّر الإسلامي الأصيل لها بشكل واسع، وحرمت البشرية كثيراً عن تلك النظرة الواقعية المباركة لموقع الرجل والمرأة في الرسالة الإسلامية المقدّسة.

٤ ـ سيطرة الرجل على المجتمعات، وتصرفه المطلق في مختلف شؤون الحياة الإنسانية، وتغييب دور المرأة لعدّة قرون، ساهم هو الآخر في تغييب الصورة الإسلامية الأصيلة عن مواقع الرجل والمرأة في الحياة الإنسانية التي يتصوّرها الإسلام الحنيف أو يدعو إليها.

٥ ـ خضوع المرأة لذلك الواقع المزيف، والمصادر لحقوقها، ورضوخها له خلافاً للمرأة في عهد النبي ﷺ التي كانت تحاور وتجادل وتحضر في المواقع المهمة لحركة التجربة الإسلامية، حتى تنزل القرآن الكريم شارحاً لتلك النماذج من التجربة.. يقول سبحانه وتعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾، وفي التجربة الرائدة التي قادها المصطفى ﷺ في المدينة المنورة صور رائعة لمكانة المرأة، ومشاركتها في التجربة الإسلامية

الأولى، مما لا مثيل لها في التجارب اللّاحقة إلّا في مقياس الندرة.

٦ ـ ظهـور دعـوات حقـوق المرأة في أوربا والتي تطرفّـت هـي الأخرى فساهمت في العهود الأخيرة في إرباك الصورة بشكل كامل، حيث أخرجت المرأة عن مواقعها، وحمّلتها من المسؤوليات، والمهام، فوق ما تطيق حتى نشـأ في أوربا منذ عقود من السنين ما يطلق عليه بالجنس الثالث الذي فقد الشـعور بانوثتـه، حيث تـعيش التـجربة الأوربية المعاصرة أسوأ أوضاعها على مستوى تفكك الأسرة، وقلّة النسل ـ في بعض المجتمعات ـ وشيوع الرذيلة، وتمزق عرى المجـتمع، وتعرض الأجيال الجديدة للضياع...

هذا وقد تفشت ظاهرة التعامل مع المرأة «كمتعة» للرجل بشكل مثير، كما تشهد الكثير من النشاطات التجارية في مختلف بلدان أوربا التي حولت المرأة إلى سلعة تعرّضها الشركات، ومؤسسات الإعلان، حتى عادت هذه تجارة البغاء وتسويق الرذيلة مـن المـوارد القـومية لبعض الدول كروسيا، وتايلند وأمريكا وغيرها.

هذا ما أردنا عرضه بالنسبة للعوامل التي ساهمت في تغييب الدور الحضاري للمرأة كما عرضتهُ رسالة الله الخاتمة.

العلاقات بين الجنسين، كيف يُنظِّمها الاسلام ؟

إنّ أساس وجود الجنسين: الرّجل والمرأة في الحياة الانسانية يفرض اجتماعهما في الحياة العامّة، ويوجب تعاونهما؛ لأنّ اجتماعهما وتعاونهما ضروري للحياة، وبناء الحضارة، وإثارة الحياة من حولهما..

بيدَ أنّ هذا التعاون لا يتمّ بشكل صحيح سليم وبنّاء، إلّا بتنظيم العلاقات الجنسية بين الرّجل والمرأة، وتنظيم شكل العلاقة بينهما..

ومن الطبيعي أن يعتمد هذا النظام والتنظيم على طبيعة النظرة للعلاقات بين الجنسين، فإذا كانت النظرة لهذه العلاقات قائمة على أساس أنّها صلة بين ذكر وأنثى، فانّ هذه النظرة تستتبعها إشاعة الفكر الجنسي، الذي يثير الغريزة الجنسية ويُحرّكها، لتتطلّب الاشباع، وما يتبعها من صلات جنسية، بوسائلها المعروفة في عالم الغرب..

أمّا اذا كانت النظرة للعلاقة بين الجنسين قائمة على أساس الهدف الذي خلق الله عزّ وجلّ الغريزة الجنسية من أجله، وهو بقاء النوع الانساني، واستمرار الحياة، فإنّ الصلات الجنسية بين الرّجل والمرأة إنّما تتحقّق من خلال الزّواج فحسب.

إنّ الاختلاف بين النظرتين للعلاقة بين الرّجل والمرأة، هـو الذي يحدِّد طبيعة العلاقة بين الجنسين، ونوعها، ووسائلها كذلك.

ولذا، فبناءً على النظرة الغربية المادية لتلك العلاقة، تشيع الحضارة الأوربية بالوسـائل المختلفة، الأفكار الجنسية الفاضحة مـن خـلال القصص والأدب والفن والشعر والموسيقى والسينما والمسرح والفضائيات، والانترنيت، كما تشيع الاختلاط بين الرّجل والمـرأة، دون مُـبرِّر في المدارس والنوادي والحمّامات والسّباحة وما إلى ذلك، حيث تتحدّث الأرقام المُذهلة ـ بناءً على ذلك ـ عن النتائج الخطيرة لهذه الظاهرة، كشيوع الفاحشـة، والاغتصاب، والحمل بين الفتـيات من البـغاء، والخيانة الزوجية، وانتشار مرض الأيدز، وارتفاع نسـبة الطّـلاق، وقلّة النّسـل في كثير من بلدان أوروبا، وما إلى ذلك... ولا يعني ذلك أنّ المجتمعات الشرقية في منأى عن هذه المخاطر؛ لأنّ التأثّر بالنـظرة الأوروبية للصّلات بين الرجل والمرأة القائمة على الجنس، والشهوة، قد نقل الأمراض التي ابتليت بها المجتمعات الغربية إلى الشرق بنسب مختلفة، حسب درجة ذلك التأثّر بالحضارة الغربية وثقافتها وطريقة العيش في مجتمعاتها.

أمّا النظرة الاسلامية الى العلاقات بين الجنسين في المجـتمع الذي

يصنعه تحت رعايته، وينضبط بقيمه وأحكامه وآدابه، فهي تقوم على أساس حفظ النوع الانساني، كما تشير النصوص التي تحضّ على الزّواج في المجتمع المسلم، من قبيل:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن كان يحبّ أن يتّبع سنّتي، فليتزوّج، فإنّ من سنّتي التزويج، واطلبوا(*) الولد، فإنّي أُكاثِر بكم الأُمم غداً»(١).

إذ ليس إشباع الغريزة الجنسية في الاسلام الحنيف غاية بذاته أبداً، كما أنّ إثارة هذه الغريزة تأتي من المؤثّرات الخارجية؛ كالأفكار الجنسية، والآداب والفنون والاختلاط، وما إلى ذلك، إضافة إلى تداعي المعاني، خِلافاً لغريزة المعدة ـ مثلاً ـ التي تُثار داخليّاً، فالجوع والحاجة إلى الطّعام تفرض على الانسان بشكل ذاتي، أن يتناول طعامه أو ما يسدّ به رمقه، سواء رأى الطّعام أو لم يَرَه، خلافاً للغريزة الجنسية التي تُحرِّكها المؤثّرات التي ذكرنا ـ قبل قليل ـ.

ومن هنا، فانّ الاسلام الحنيف، يرى أنّ إشاعة الثقافة الجنسية

(*) المقصود بالطّفل.

(١) بحار الأنوار، ١٠٣/ ٢١٨، ح ١٠.

المثيرة من خلال الأفلام، والقصص، والآداب، وما إلى ذلك هي من الأُمور المُحرّضة على إشاعة الفاحشة، كما أنّ الاسلام يمنع من الخلوة التامّة بين الرّجل والمرأة، ويمنع من النظر بين الرّجل والمرأة نظرة جنسية «النظر بشهوة في المصطلح الفقهي»[1]، كما ينهى عن تبرّج المرأة في الأماكن العامّة، وينهى عن زينتها أمام غير محارمها، وغير ذلك ممّا هو مُبيّن في فقه الأُسرة، كلّ ذلك من أجل الحفاظ على مجتمعه، وتنظيم العلاقات بين الجنسين في أجواء من الطّهر والعفّة وحسن الأداء، لقيام مجتمع متميّز في نظرته لدور كل من الرّجل والمرأة، وطبيعة الصّلات بينهما..

على أنّ السبيل الوحيد الذي يضمن تحقيق ذلك اللّون من العلاقات في المجتمع، هو الاعتماد على الناحية الروحية، واستشعار وجود الله عزّ وجلّ، والتمسّك بالمنظومة التشريعية المباركة التي صدعَ الرسول الخاتم صلّى الله عليه وآله وسلّم بها..

فالإسلام، يتعامل مع الرّجل والمرأة على أنّهما بشر وإنسان، فيهما الغرائز والمشاعر والنزعات والميول والعواطف، وهما يتمتّعان بالعقل،

---

(١) منهاج الصالحين: الإمام الخوئي رحمه الله، ٢: كتاب النكاح.

وانّ من حق هذا الانسان المكرّم عند الله خالقه سبحانه وتعالى، سواء أكان رجلاً أو امرأة أن يتمتّع بالطيّبات التي أخرجها الله له، وأن ينعم بحياة لذيذة هانئة، وأن يأخذ بأوفر نصيب من نعم الحياة، وفرصها التي أتاحها الله عزّ وجلّ..

والإسلام الحنيف بقيمه ومفاهيمه وأحكامه، يتعامل مع غريزة النوع: الغريزة الجنسية، على أنّها غريزة لبقاء النوع الانساني واستمرار وجوده، فينظِّم العلاقات بين الذكورة والأنوثة، بالشكل الذي يُحقِّق أهداف الخلق التي أوجدها الخالِق عزّ وجلّ، من إيداع هذه الغريزة في الانسان، فيُنظِّمها تنظيماً دقيقاً، في اطار نظام تشريعي رائع، يوفِّر من خلاله تحقيق الغايات العُظمى التي خلق الله تعالى الغريزة الجنسية من أجلها، فأودعها في الانسان، ويقيم طرازاً من الصِّلات بين الذّكر والأنثى في ظلّ المجتمع الاسلامي، يضمن فيه المحافظة على أهداف الخلق، ويُرسّخ أقدام الفضيلة والطّهارة والقيمة الخلقية في مجتمعه، ويُحقِّق التعاون والتكامل بين الرجل والمرأة بالشكل الذي يُحقِّق أهدافهما ومسؤوليّتهما الانسانية والرسالية في الحياة، في إقامة الجماعة الصالحة والمجتمع السعيد والحضارة الربّانية الكريمة..

ومن أجل ذلك، فقد حصر الاسلام الصِّلات الجنسية، أي صلة

الرّجل والمرأة بالزّواج دون غيره، ومنعَ من تعاطي أيّة صلة أخرى.

يقول الباري عزّ وجلّ بهذا الصّدد في الآية الكريمة:

﴿والّذينَ هُم لِفُروجِهِم حافِظون * إلّا على أزواجِهِم أو ما مَلَكَت أيمانهم، فانّهم غير ملومين * فَمَن آبتَغى وراء ذلك، فأولئكَ هُم العادون﴾. (المؤمنون / ٥ ـ ٧)

وأرسى الاسلام قواعد الصّلات الرحمية بشكل رائع؛ كالأبوّة والأُمومة والبنوّة والأُخوّة والعمومة والخؤولة، وجعلها رحماً محرّماً..

وقد أباح الاسلام الحنيف للمرأة ما أباحه للرّجل في ممارسة الأعمال التجارية، ومزاولة الزراعة والصناعة، ودراسة العلم، وحضور الصّلوات، والاجتماعات الدينية والفعاليات السياسية، والتوفّر على أداء المسؤولية الأدبية والشرعية والوطنية في المجتمع.

ولقد اعتبر الاسلام الحنيف: التعاون بين الرّجل والمرأة في شؤون الحياة المختلفة، أمراً ثابتاً، وضروريّاً لإثارة الحياة، وبناء الحضارة الانسانية..

فجميع الناس عباد الله عزّ وجلّ، والكل مدعوّون لعمل الخير، وإقامة المعروف، وبناء الحياة، وصناعة المجد للانسانية..

ودعوة الاسلام جاءت عامّة للذّكر والأُنثى، دون استثناء، وما

جاء من استثناءات في الأحكام والمسؤوليات، سواء أكانَ للرّجل أم للمرأة، فإنّما جاء بناءً على الخصائص التكوينية والطبيعية لكليهما، فالأحكام بالنسبة للرّجل والمرأة تدور مدار طبيعة كل منهما وخصائصه الطبيعية، وما يتعلّق بقضايا الطّهارة ونظافة العلاقات بين الجنسين لا غير، وإلّا فانّ جميع الفرائض والمهام والأحكام يُخاطَب بها الرِّجال والنِّساء معاً..

فالدعوة الاسلامية، والنداء الربّاني، توجّهان للرِّجال والنِّساء معاً، لا فرق بينهما..

يقول تعالى: ﴿يا أيُّها النّاسُ إنّي رسولُ اللهِ إليكُم جميعاً﴾، وأوّل مَن لبّى دعوة الرسالة الخاتمة في بداياتها، كان رجلاً وامرأة، هما أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وخديجة بنت خويلد أُم المؤمنين عليها السلام.

وشهدت قافلة الهجرة الأُولى للحبشة رجالاً ونساءً!!

وكانت أوّل شهداء الدعوة الاسلامية وضحاياها، إمرأة شهيدة هي: سميّة أم عمّار بن ياسر رضي الله عنه.

والدّعوة الربّانية للعمل بأحكام الاسلام وفرائضه، والتزام حدوده موجّهة للرّجل والمرأة معاً، لا فرقَ بينهما كذلك:

﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنوا استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكُم لما يُحْييكُم ...﴾.

﴿وأقيموا الصّلاةَ، وآتوا الزّكاةَ﴾.

﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنوا كُتِبَ عَليكُم الصِّيام، كما كُتِبَ على الّذينَ مِن قَبْلِكُم﴾.

وهكذا في سائر الأحكام والتوجيهات، دون ما يتعلّق منها بالخصائص الطبيعية لكل من الجنسين، ومهمّة الحفاظ على نظافة المجتمع وطهارته من التجاوز والاعتداء والفساد، وتخطّي حدود الآداب العامّة.

ونذكر من هذه الأحكام الخاصّة ما يلي:

١ ـ فرض الاسلام لباساً خاصّاً للمرأة، يغطّي تمام جسدها دون الكفّين والوجه، طالما خالطت غير محارمها في العمل والسوق والمدرسة والمستشفى وغيرها..

وبناءً على ذلك فإنّ الزي الاسلامي الخاص للمرأة، إنّما صمّمه الاسلام الحنيف من أجل أن تُمارس المرأة دورها الطبيعي في الحياة العامّة كإنسان، مع الاحتفاظ بنظافة العلاقات مع الرجل بعيداً عن

الإثارات الجنسية، واستغلال الفضوليين لها، أمّا في حياتها الخاصّة، فالمرأة حرّة في حياتها المذكورة.

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيّها النبيّ قُل لأزواجِكَ وبَناتِكَ ونِساءِ المؤمنينَ يُدنين عليهنّ من جَلابيبهِنّ...﴾.

﴿ولا يُبدينَ زينتهنّ إلّا ما ظهرَ منها، وليضربنَ بخمرهنّ على جيوبهنّ﴾.

٢ ـ ألزَم التشريع الاسلامي كلّاً من الرّجل والمرأة بغضّ البصر المُفضي إلى التلذّذ الجنسي والإثارة الجنسية، قال الله تعالى:

﴿قُل للمُؤمنينَ يَغضّوا من أبصارِهِم، ويحفظُوا فُروجِهِم، ذلكَ أزكىٰ لهم، إنّ اللهَ خَبيرٌ بما يَصنعُون، وقُل للمُؤمناتِ يغضضنَ من أبصارهنّ، ويَحفظنَ فُروجهنّ...﴾.

٣ ـ منعَتْ الشريعة الاسلامية من الخلوة التامّة بين الجنسين، في مكان خاص، خوفاً من الفتنة، ودرءً للعلاقة الجنسية في غير موقعها..

فعن الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، عن آبائه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «فيما أخذَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البيعة على

النِّساء، أن لا يحتبين، ولا يقعدنَ مع الرِّجال في الخلاء»[1].

٤ ـ حرصَ الاسلام الحنيف على الفصل بين جماعة النِّساء عن جماعة الرِّجال في الحياة الخاصّة لكلا الجماعتين. فعيش النساء لا بدّ أن يكون مع النساء أو مع محارمهنّ من الرِّجال في الحياة الخاصّة في المنازل، وكالأقسام الداخلية للطلبة، كما تعزل مدارس الشباب عن الشابّات في المجتمع الاسلامي، كذلك فانّ لهو النِّساء في الأعراس والأفراح لا بدّ أن يكون معزولاً عن مجتمع الرِّجال، كذلك في مستشفيات الأمراض النسائية وغير ذلك.

أمّا في الحياة العامّة؛ كالبيع والشراء، والمهن الحرّة، والوظائف الحكومية، فلا يُفصل الرِّجال عن النِّساء؛ لأنّ الاحتياطات التي جعلها الاسلام بخصوص فصل الرِّجال عن النِّساء، إنّما هدفها الأساس هو الحفاظ على طهارة المجتمع المسلم، وإبعاده عن الإثارة الجنسية المحرّمة؛ والاجتماع الجنسي المحظور، بناءً على أنّ نظرة الاسلام للغريزة الجنسية، انّها وسيلة لحفظ النوع الانساني، يشبعها الناس من خلال طرق محدّدة، وهي كما يكون أمر إشباعها محظوراً خارج اطار الزّواج، فانّ إثارتها خارج تلك الأُطر يكون محظوراً كذلك.

---

(١) الكافي ٥/٥١٩/٦.

ولذا فانّ الاسلام الحنيف يحرص على منع الاجتماعات التي تـثير غريزة الجنس بين الجنسين، لكي يبقى المجتمع محتفظاً برزانته وطهره، وتظلّ العلاقات بين الرّجال والنّساء علاقات تعاون، وتدبير لشؤون الحياة والمجتمع وللمصالح العامّة.

ماذا عن عمل المرأة ؟

تقوم الرؤية الاسلامية للأعمال والنشاطات التي يُباشرها الانسان في الحياة، على اعتبار الانسان إنساناً بغضّ النظر عن كونه ذكراً أو أنثى، دون تفريق أو تنويع، فالواجب واجب على الجنسين معاً، والمحرّم محرّم عليهما معاً، وكذا الحال بالنسبة لما يندب إليه الشرع من نشاطات، وما يعتبره مكروهاً منها..!

هذه هي السياسة العامّة للتشريع الاسلامي بخصوص الرّجل والمرأة، وهذا هو اتجاهه.. بيدَ أنّ هناك من النشاطات والأعمال، ما يفرضها الاسلام على الرّجل لكونه رجلاً، وهناك من الأعمال والنشاطات ما لا تصلح إلّا للمرأة دون الرّجل، وهذا النوع من التخصّص، إنّما فرضته طبيعة كل منهما دون الآخر..

فالإسلام ـ مثلاً ـ يوكل مهمّة حضانة الأولاد ـ ذكوراً كانوا أم أُناثاً ـ إلى النّساء، باعتبار الخصوصية التكوينية للمرأة، التي تؤهّلها للنهوض بهذا العمل دون الرّجال..

وإضافة إلى ذلك، فانّ بعض أحكام الشريعة، رغم أنّ الرّجال والنّساء يؤدّونها معاً، إلّا أنّ تمييزاً في ادائها بالنسبة للجنسين قد شرّعه الاسلام، بما ينسجم مع طبيعة كل منهما أيضاً، كفريضة الحج مثلاً، التي يؤدّيها كلا الجنسين، وفي وقت واحد، إلّا أنّ بعض النشاطات، والممارسات ضمن هذه الفريضة، يؤدّيها أحدهما دون الآخر. فالرّجل يرتدي لباساً غير مخيط في كثير من أعمال الحج، بينما لا يفرض ذلك على المرأة أبداً، وتُراعي الشريعة حالة المرأة في وقت رجم الجمرات مثلاً، وفي الإفاضة من المشعر الحرام، ولها أحكام خاصّة عند الحيض، وما إلى ذلك من أمور، كل ذلك رعاية للمرأة، وأخذاً بنظر الاعتبار لوضعها التكويني[1].

وحيث جعل الخالِق جلّ وعلا المرأة أُمّاً، وربّة بيت وحاضنة للأجيال البشرية أساساً، فقد اختصّها بأحكام ذات علاقة بالحمل، وأحكام تتعلّق بالولادة والرّضاعة والحضانة وما إلى ذلك.

فإنّ دور المرأة الهام في الحياة الانسانية هو الأُمومة، وما يتعلّق بها؛ لأنّ في ذلك العمل الانساني العظيم بقاء النوع الانساني، واستمرار وجوده، ولذا فللأهمية الأُمومة، وتدبير المنزل، ضحّى الاسلام ببعض

---

(١) راجع أحكام الحج في الرسائل العملية للفقهاء المسلمين.

تكاليفه لصالح هذا العمل، فقد أسقطَ الاسلام الحنيف فريضة الصلاة عن الحائض والنفساء، وأباحَ لها الإفطار في شهر الصّيام، إذا أضرّ بها الصّيام أو برضيعها، ولم يفرض عليها صلاة الجمعة، أسوة بالرّجال، ولا المشاركة في الجهاد الابتدائي، وغير ذلك من أحكام وتكاليف وفرائض..

إلّا أنّ اعتبار الأُمومة وإدارة البيت، عمل أساس للمرأة، لا يعني بحال انّها ممنوعة عن ممارسة الأعمال الأُخرى جنباً إلى جنب مع الرّجال، وإنّما لأنّ خالق الوجود سبحانه وتعالى، جعل المرأة سكناً للرّجل، تنشأ منها الذرية والامتداد الطبيعي للنسل، يقول الله تعالىٰ:

﴿والله جعلَ لكُم من أنفسكم أزواجاً، وجعلَ لكم من أزواجِكُم بنين، وحفدة...﴾.

﴿ومِن آياتِهِ أن خلقَ لكُم من أنفُسِكُم أزواجاً لتسكنوا إليها...﴾.

بيدَ أنّ الله عزّ وجلّ، خلق المرأة لتثير الحياة إلى جنب الرّجل، ضمن الحياة العامّة، فوجب عليها حمل الدعوة الإلهٰية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطلب العلم، وأباح لها تنمية الأموال وكسب الأرباح من خلال التجارة والزراعة والمُساهمة في المشاريع الصناعية، وأن تتولّى بنفسها العقود، وأن تُضارِب بأموالها، وأن

تعمل شريكة أو أجيرة، وبسائر المعاملات المالية المشروعة.

هذا إضافة إلى أنّ المرأة كالرّجل، حرّم عليها الكذب والافتراء والخيانة والغيبة والإساءة لعباد الله والنميمة وتتبّع العثرات وأمثال ذلك من آداب اجتماعية وغيرها، كالرّجل سواء بسواء.

المرأة في الحياة السياسية

سبقَ لنا أن أشرنا فيما مضى من صفحات إلى أنّ موقع المرأة في الحياة الاسلامية قد شابهُ الغموض والتشويه، لعدّة عوامل، كان في طليعتها: اختلاق نصوص مُشوّهة لدور المرأة، أو اساءة فهم بعض النصوص الصحيحة، أو تعميم نصوص صدرت في مناسبة خاصّة محدّدة، وأمثال ذلك.

ومن أجل هذا وذاك من أمور، اختفت الصورة الناصعة لدور المرأة في الحياة الاسلامية، وفي بناء الحضارة، فما هو موقع المرأة في الحياة السياسية يا ترى؟

من المناسِب أن نؤكّد ابتداءً أنّ النصوص الاسلامية السياسية الأصيلة لم نجد فيها ما يحرم المرأة من حق سياسي أو يمنعها من مهمّة أو مساهمة سياسية، وأنّ الغالبية العُظمى من النصوص السياسية الاسلامية تُخاطِب الانسان عموماً، رجلاً وامرأة، على حدٍّ سواء:

فإقامة الدين، وإرساء قواعد الحضارة الاسلامية، ومنها بناء

الدولة، وإرساء قواعد المجتمع الاسلامي من مهام الرّجل والمرأة، على حدٍّ سواء، يتحمّل كلاهما مسؤولية العمل من أجله، بالوسائل المشروعة المُتاحة، يقول تعالى:

﴿شَرَعَ لكُم مِنَ الدِّينِ ما وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَٱلَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسىٰ وَعيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فيه...﴾. (الشورى / ١٣)

والولاية السياسية بين أبناء الأُمّة الاسلامية ونصرة بعضهم لبعض، القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون، والتناصر، والتناصح، تنهض بها المرأة إلى جنب الرّجل سواء بسوا:

﴿المؤمنون والمؤمنات، بعضهم أولياء بعضٍ، يأمرونَ بالمعروف ويَنهونَ عن المنكر﴾. (التوبة / ٧١)

والبيعة السياسية للقيادة العُليا، تشمل الرّجال والنّساء معاً، دون استثناء:

﴿يا أَيُّها النبيّ إذا جاءَكَ المُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ في مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللهَ﴾. (الممتحنة / ١٢)

وفي بيعة العقبة التي جرت بين رسول الله ﷺ، وجمع من الأنصار، كان ذلك الجمع يضمّ رجالاً ونساءً، وقد بايعوا الرّسول ﷺ على أن يمنعوه بما يمنعون به نساءهم وأبناءهم، وكانت تلك البيعة بيعة سياسية.

وقد أكّدت النصوص الشرعية الأصيلة أنّ المرأة كانت تناقش القيادة العُليا، حتّى تجادل الرسول ﷺ في شؤونها الخاصّة:

﴿قَد سمعَ اللهُ قولَ التي تُجادلكَ في زوجِها، وتشتكي إلى الله، واللهُ يسمعُ تحاوركما...﴾. (المجادلة/١)

والشورى في إدارة الحكم الاسلامي، وفي اختيار القائد الأعلى - في عصر غيبة المعصوم عليه السلام - عامّة لجميع المسلمين، ولم تستثنَ النّساء من هذه العملية أبداً، وإنّما هو مهمّة سياسية، يُباشرها الرّجال والنّساء في ظلّ التجربة الاسلامية:

﴿وأمرهُم شورىٰ بينهم...﴾. (الشورىٰ/٣٨)

وآية الشورى وما قبلها من نصوص، تؤكّد أنّ بإمكان المرأة أن تُباشر الحياة السياسية في أعلى صورها، فتكون عضواً في المجلس النيابي للأُمّة، وتختار وترفض وتناقش وتتظاهر وتعترض وتساهم في مختلف النشاطات السياسية.

كما انّ بمقدورها أن تأمر الحاكم بالمعروف، وتنهاه عن المنكر، حسب قانون المحاسبة والأمر بالمعروف في الشريعة المقدّسة ..

وللمرأة في الحياة الاسلامية أن تُساهِم في المعارضة، أو تصدر الصحف الحرّة، أو تُساهم في نقد الحاكم والمسؤولين، وتُحاسِب الظالمين، وتُساهم في تشكيل الأحزاب ..

وفي التاريخ الاسلامي نماذج رائعة لهذه الحالة، والمُساهمة السياسية الصريحة ..

وكان موقف الصدّيقة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهي سيّدة نساء العالمين ـ، ومسألة السقيفة، أروع الأمثلة وأصرحها على المعارضة السياسية، والمجاهرة بالحق[1] ..

وكان موقف زينب بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، في حادثة كربلاء، إلى جانب أخيها الإمام الحسين عليه السلام، وما تلاها من أحداث من أوضح الأدلّة على الدور الرسالي العظيم الذي تؤدّيه المرأة من أجل الاسلام والانسان والمصلحة الاسلامية العُليا، بقيادة إمام الهدى عليه السلام[2] ..

---

(١) انظر: الإمامة والسياسة: ابن قتيبة الدينوري، ١٨ ـ ١٩.

(٢) زينب بنت علي: عبدالعزيز سيد الأهل.

وفي مواقف النِّساء المؤمنات من حكومة الطغيان الأموي منذ عهد معاوية بن أبي سفيان، شواهد حيّة على صمود النِّساء المؤمنات في وجه الطّغيان السياسي.

وهكذا يمكننا أن نخلص إلى القول: انّ المرأة كالرّجل في ممارسة الفعاليات السياسية في المجتمع الاسلامي، وإذا قدر أنّ هناك استثناءات محدّدة، فهي تتعلّق بالتكوين الطبيعي لأحد الجنسين، وما يتعلّق بمهمّة توزيع المهام، لإدارة شؤون الحياة الانسانية، بشكلها المطلوب.

نظرة في النصوص المتعلقة بالمرأة

لو أجرينا دراسة للنصوص الاسلامية المتعلّقة بشؤون المرأة ـ وما أكثرها [1] ـ لوجدنا فيما نجد أنّ النصوص التي يشملها الإحصاء والدراسة تنقسم إلى خمسة أقسام:

١ ـ نصوص صريحة، صحيحة السند، واضحة الدلالة، وهذه النصوص لا تكاد تُحصى كثرة، حيث تتناول مكانة المرأة، وموقعها في الحياة، والحضارة، كما أراد الله عزّ وجلّ مع تحديد لواجباتها، وحقوقها، الفردية، والاجتماعية، في اطار وظائفها التي أُعدّت لها من قِبَل خالق الوجود سبحانه وتعالى.

٢ ـ نصوص مُفتعلَة، موضوعة على لسان الإسلام الحنيف، كالنصوص التي تُنسَب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد لعب الوضّاع دوراً

(١) جمع المرحوم الشيخ محمدباقر المجلسي رحمه الله منها عشرات النصوص في كتابه بحار الأنوار، ١٠٣ / ٢١٦ ـ ٣٨٦.

قذراً في افتعال تلك الأحاديث، والروايات، ونسبتها إلى الرسول ﷺ، أمّا خُبثاً، أو تأثّراً بالثقافات الجاهلية القديمة، أو أعراف النصارى، واليهود، والفرس، واليونان، وعرب الجاهلية، وما إلى ذلك.

٣ ـ نصوص صحيحة السند، قد وردت على لسان المعصوم عليه السلام، بيدَ أنّ فهمها أو استلهام معانيها، قد يتعرّض للتأثّر بثقافة الشرّاح، والمفسّرين، فيؤوّلونها على غير أهدافها، ومراميها، وهذا النمط من النصوص منثور هنا، أو هناك أيضاً، في كتب الآثار والأحاديث، والسّنن، والفقه، وما إليها ....

٤ ـ نصوص وردت في مناسبة خاصّة، وفي نموذج خاص من النساء، فعمّمها الرّواة، والشرّاح، فخرجوا عن غرض تلك النصوص، وأهدافها، وشوّهوا نظرية الاسلام العامّة حول المرأة.

٥ ـ نصوص رواها بعض المحدّثين، إمّا ناقصة أو مبتورة، فأساء نقصها إلى مضمونها الحقيقي، فكان لها دور في تشويه الصورة الناصعة لأطروحة الاسلام بشأن المرأة، ودورها في بناء الحياة، والحضارة الانسانية.

علامات الوضع في المرويّات:

يتّضح الافتعال والوضع على المعصوم عليه السلام، من خلال ثلاثة مقاييس اعتمدها العلماء:

١ - أن يكون في سلسلة رواة الحديث أحد الوضّاعين سواء من المرتزقة أو الزنادقة، أو النواصب أو الغلاة، وأمثالهم، ممّن كان يتصدّى للوضع في الحديث أو التزييف له، أو كتمان بعض سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ظهر هذا النمط من عناصر التخريب الثقافي في أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، في العهد الأموي، والعبّاسي على وجه الخصوص، حيث ظهر في تلك الفترات أسوأ المخرّبين للثقافة الاسلامية، من أمثال تميم الداري، وسيف بن عمر، وكعب الأحبار، والمغيرة بن سعيد، ومحمد ابن أحمد السياري، وغيرهم.

٢ - أن يتعارَض الحديث المروي مع مضمون القرآن الكريم وحقيقته، فقد ورد عن الأئمة من آل البيت عليهم السلام أنّ ما خالفَ القرآن، فهو زُخرُف[1]، وقد دعوا أتباعهم إلى أن يضربوا بهذه النماذج من

(١) الكليني، الأُصول من الكافي، ١ / ٦٠، حديث ٣.

المرويّات عرض الجدار، فالمقياس في معرفة الحق من الباطل والغثّ من السمين، في الروايات التي ينقلها الرّواة والمحدِّثون، أن تكون منسجمة مع حقائق القرآن الكريم ومضامينه الربانية؛ لأنّه المقياس الأوّل الذي توزَن به مفاهيم الرسالة وقيمها، قبل أي شيء آخر.

٣ ـ أن تتعارَض الرواية مع النصوص الشريفة المقطوع بصحّتها سنداً ومتناً..

إنّ هذه الموازين العلمية المباركة، هي التي تضع الضمانات القانونية لكشف زيف المفاهيم والأفكار والثقافة، التي تعارض جوهر الحقائق الاسلامية المقدّسة..

وإنّ تطبيق هذه الموازين على الروايات، والأحاديث التي تُنسَب للمعصوم عليه السلام، كفيلة بفرزِ النص الحقيقي من المفتعَل، والسليم من الغثّ. وهذه نماذج من الروايات التي افتعلها أعداء الاسلام:

«لولا النِّساء لعُبِدَ الله حقّاً حقّا».

«لا تُعلِّموهنّ الكتابة، ولا تُسكنوهنّ الغرف».

«أعدىٰ عدوّك، زوجتك».

«هلكت الرِّجال حين أطاعت النِّساء».

وهكذا نخلص إلى نتيجة واضحة، أنّ النصوص الواردة بشأن مكانة المرأة في الحياة الاسلامية، وردت بمضامين مُتفاوتة، فمنها الصحيح الواضح الصريح، ومنها المُفتعَل الموضوع، ومنها الناقص المبتور، ومنها الذي أُسيء فهمه من قِبَل الرّواة أو الشرّاح، ومنها الصادر في مناسبة خاصّة، فعمّمه البعض على الحالة العامّة!!

الفهرس